صورة المجتمع المكي في كتابات الرحَّالة في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري

د. عبداللطيف محمد الصبَّاغ
قسم التاريخ - كلية التربية للبنات بالأحساء

تسعى هذه الدراسة لرسم صورة المجتمع المكي من خلال ما اشتملت عليه كتابات الرحَّالة - الذين زاروا مكة في الفترة المذكورة - من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وفي مقدمة هؤلاء المستشرق الهولندي هورخرونيه، والضابط الروسي دولتشين، والياباني تاكيشي سوزوكي، وعدد من العرب المسلمين منهم البتنوني، وإبراهيم رفعت، وهيكل، والراعي.

وتدور الدراسة حول أربعة محاور أساسية يسبقها تمهيد؛ يقدم المحور الأول طبقات المجتمع المكي وأنشطتهم، ويعرض المحور الثاني صورة الأسرة والعادات والتقاليد السائدة، ويلقي المحور الثالث الضوء على الأمراض الاجتماعية، أما المحور الرابع فعن المؤسسات الاجتماعية والترفيهية والتعليمية.

وتعتمد هذه الدراسة على كتابات الرحَّالة، ومن ثَمَّ تستمد المعلومات الواردة بعض أهميتها من مكانة هؤلاء الرحّالة، وطبيعة رحلاتهم، وفترة بقائهم في مكة، لذا كان لزامًا علينا أن نُعَرِّف بهؤلاء الرحَّالة في تمهيد مختصر، كما نُضَمِّن التمهيد صورة العمران في مكة إبان فترة الدراسة، بصفته مظهرًا لحركة المجتمع.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٢٦هـ، السنة الحادية والثلاثون

١ - أشهر الرحَّالة الذين زاروا مكة في فترة الدراسة

زار مكة المكرمة في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري عدد لا بأس به من الرحّالة العرب والأجانب، منهم من اقتصر في كتابته على مناسك الحج والعمرة، ومنهم من سجل كل ما وقعت عليه عيناه، والفئة الأخيرة هي المعنية بالدراسة هنا، ومن هؤلاء:

كريستيان سنوك هورخرونيه

مستشرق هولندي زار جدة ومكة في رحلة استمرت عامًا كاملاً ١٣٠١-١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤-١٨٨٥م. ولد هورخرونيه في ٨ فبراير ١٨٥٧م (١٤ جمادى الآخرة ١٢٧٣هـ). كان علمانيًا، أتقن اللغة العربية، وحصل عام ١٨٨٠م (١٢٩٧هـ) على الدكتوراه في الآداب السامية في موضوع "الحج عند المسلمين وأهميته في الدين الإسلامي"، وعُيّن مدرسًا في كلية تدريب الموظفين لجزر الهند الشرقية بجامعة ليدن، ومنها حصل على إجازة دراسية للسفر إلى شبه الجزيرة العربية، فنزل جدة، ومكث بها ستة أشهر، تعلم خلالها اللهجة المحلية، ثم دخل مكة باسم مستعار هو (عبدالغفار)، وبقي بها ستة أشهر⁽¹⁾، ورصد هورخرونيه خصائص المجتمع المكي وعاداته وتقاليده رصدًا دقيقًا في الجزء الثاني من كتابه.

عبدالعزيز دولتشين

ضابط روسي مسلم، ولد في ٢٤ يونيو ١٨٦١م (١٦ ذو الحجة ١٢٧٧هـ)، تخرج في مدرسة الإمبراطور بافل العسكرية ببطرسبرج، أتقن لغات عدة، منها العربية والفارسية والتركية والإنجليزية والفرنسية. اختارته هيئة الأركان العامة للجيش الروسي لأداء فريضة الحج عام ١٣١٥هـ/ ١٨٩٨م، وبيان مدى خطورة الحج على مصالح روسيا السياسية والعسكرية

---

(١) أثبت المترجم أن هورخرونيه أسلم، وأخفى إسلامه عن الغرب. كريستيان هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ترجمة علي عودة الشيخ، تعليق محمد السرياني ومعراج ميرزا، (دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ١٤١٩هـ)، ج١، ص ص ٢٧- ٣٥.

في الشرق. وكانت روسيا تعد الحج وسيلة لتسريب أفكار الجامعة الإسلامية إلى ممتلكاتها الإسلامية(٢). كما خشيت روسيا من التقارب العثماني الألماني على مصالحها في المنطقة، فأرسلت البارون إدوارد نولده إلى وسط شبه الجزيرة العربية، لدراسة الأوضاع هناك عام ١٨٩٣م (١٣١٠هـ)(٣). ومن ثم جاءت رحلة دولتشين لإكمال الصورة عن المنطقة أمام القيادة الروسية.

لبى دولتشين الدعوة، وأدى مهمته بتوازن بين الواجب الديني والمهمة القومية، وأتاحت له لغاته المتعددة الاستفادة من مصادر عدة، فضلاً عن ملاحظاته ومراقباته الشخصية، فقدم معلومات مفصلة في تقريره عن الحج وشعائره، والوضع الاجتماعي والاقتصادي والصحي في المدينتين المقدستين(٤).

إبراهيم رفعت

مصري ولد بمدينة أسيوط ١٢٧٣هـ، تخرج في مدرسة الفرسان الحربية عام ١٢٩٤هـ، ثم رقي في المناصب العسكرية حتى أصبح ياورًا للخديوي(٥) عام ١٨٩٩م (١٣١٦هـ)، وتم اختياره قائدًا لحرس المحمل المصري عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠١م، ثم اختير أميرًا للحج أعوام ١٣٢٠ و١٣٢١ و١٣٢٥هـ، فسجل كل ما رآه في رحلاته الأربع(٦).

---

(٢) يفيم ريزفان، الحج قبل مئة سنة: الرحلة السرية للضابط الروسي عبدالعزيز دولتشين إلى مكة المكرمة ١٨٩٨- ١٨٩٩م، (بيروت، ١٩٩٣م)، الطبعة الثانية، ص ص ٧-٣١.

(٣) عن تفاصيل هذه الرحلة راجع: الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر الميلادي نص رحلة البارون إدوارد نولده مبعوث روسيا إلى نجد عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م، تعريب عوض البادي (دار بلاد العرب للنشر، الرياض، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).

(٤) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ٣٢.

(٥) رتبة عسكرية تركية تعني قائد حرس الشرف المرافق (للخديوي).

(٦) إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، (دار المعرفة، بيروت، د.ت)، ج١، ص ص ٣ - ٥، ج٢، ص ٣٦٥.

وقد مكنه منصبه الرسمي من الوصول إلى دقائق الأمور، غير أنه لم يركز على الحياة الاجتماعية، وانصرف إلى وصف الحالة الأمنية والدينية.

محمد لبيب البتنوني

مصري من رجال الإدارة، اختاره الخديوي عباس حلمي الثاني مرافقًا له في رحلة الحج عام ١٣٢٧هـ، وبعد العودة كلفه بوضع كتاب عن الرحلة، فوضع الكتاب برؤية رحّالة مثقف، أتاحت له صفته الرسمية الاطلاع على ما لم يتح لغيره، فسجل كل ما وقعت عليه عيناه، من جغرافيا وعمران واجتماع. وزود الكتاب برؤية تاريخية منحازة ضد الدعوة السلفية (الوهابية)(٧)، وذيله بخرائط توضيحية مهمة(٨). والرحلة تقدم رؤية مصرية شبه رسمية للأوضاع في الحجاز.

مصطفى محمد الراعي

مثقف مصري قام بأداء فريضة الحج عام ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م، ورصد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لأهالي مكة والمدينة، وقدم رؤية نقدية لهذه الأوضاع، أظهر خلالها إعجابه بالروح الدينية السائدة في ظل الحكم السعودي، ولكنه حمل على هدم المزارات(٩).

بالإضافة إلى الرحلات السابقة، فقد استعنت بعدد آخر من الرحلات تأتي في المرتبة الثانية؛ لأنها لم تكن على الدرجة ذاتها من

---

(٧) أطلق معارضو الدعوة السلفية عليها لفظة الوهّابية نسبة إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب، بما يسهل عليهم الكيد لها بعد تجريدها من التبعية لله ولرسوله وربطها بشخص.

(٨) محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية لولي النعم عباس حلمي الثاني خديوي مصر، (مطبعة الجمالية، القاهرة، ١٣٢٩هـ)، ط٢، ص ص ١- ٥، ٣٨.

(٩) مصطفى محمد الراعي، في المملكة الروحية للعالم الإسلامي، رحلة إلى الأراضي المقدسة عام ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م، (مطبعة المدينة المنورة، ١٩٣٥م).

الأهمية، أو أنها جاءت بعد الفترة الزمنية المحددة للبحث مباشرة، ومن ثَمّ فهي تلقي بمزيد من الضوء على صورة المجتمع المكي في العهد السعودي، ومنها على سبيل المثال رحلة الياباني سوزوكي (محمد صالح)(١٠)، ورحلة محمد حسين هيكل(١١)، ورحلة عباس متولي حمادة(١٢)، ورحلة عبدالغني الشهبندر(١٣)، ورحلة محيي الدين رضا(١٤)، ورحلة غريب الهاشمي(١٥)، وغيرهم.

---

(١٠) ياباني عاش في إندونيسيا فترة، واعتنق الإسلام، وأدى فريضة الحج ثلاث مرات في سنوات ١٣٥٣ و١٣٥٥ و١٣٥٦هـ، ثم دون كتابه عن تجربة الحج في عام ١٣٦١هـ، راجع: تاكيشي سوزوكي، ياباني في مكة، ترجمة وتعليق سمير إبراهيم وسارة تاكاهاشي، (دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٩٩٩م)، ص ص ٢٢- ٢٨.

(١١) أديب مصري، أسهم في الحياة السياسية المصرية من خلال الحياة النيابية، زار مكة لأداء فريضة الحج عام ١٣٥٥هـ، وانفعل بكل ما رآه انفعال الأديب الحاذق، فكتب أخبار هذه الرحلة راجع: محمد حسين هيكل، في منزل الوحي، (دار الكتب المصرية، ١٣٥٦هـ).

(١٢) من أعضاء هيئة التدريس بالأزهر، سافر لأداء فريضة الحج عام ١٣٥٤هـ، فحمل معه كاميرا، وسجل أحداث الرحلة كاملة بأسلوب دقيق ممتع. والكتاب يعد رؤية أزهرية للأوضاع في مكة في ظل الحكم السعودي. عباس متولي حمادة، مشاهداتي في الحجاز، (القاهرة، ١٣٥٥هـ)، ص ص ٥-٨.

(١٣) طبيب شامي مثقف، أنشأ مجلة الحكمة في بيروت، وفي عام ١٩٣٦م (١٣٥٢هـ) رافق بعثة الحج الشامي بوصفه طبيبًا. وكانت هذه هي الرحلة الثانية للشهبندر، بينما كانت رحلته الأولى إلى مكة في عهد الشريف الحسين بن علي؛ ومن ثمَّ تكتسب كتاباته في هذه الرحلة بعدًا آخر هو إيضاح الفوارق بين الأوضاع في مكة في العهدين الشريفي والسعودي. عبدالغني الشهبندر، رحلة الحجاز، (بيروت، ١٩٣٧م)، ص ص ١- ١٦.

(١٤) صحفي مصري يعمل محررًا بجريدة المقطم، وهو ابن شقيق محمد رشيد رضا صاحب المنار، قام برحلة لأداء فريضة الحج عام ١٣٥٣هـ، التقى خلالها الملك عبدالعزيز آل سعود، وسجل أخبار رحلته بأسلوب صحفي في كتاب بعنوان: محيي الدين رضا، رحلتي إلى الحجاز عام ١٩٣٥م، (مطبعة المنار، القاهرة، ١٩٣٦م).

(١٥) مثقف لبناني جاء إلى مكة لأداء فريضة الحج، رافقه والده، الذي سبق له أن عاش في مكة فترة في ظل الحكم العثماني، لذا استمد غريب كثيرًا من أخبار مكة عن والده، فجاءت غير معبرة عن الفترة التي زار فيها مكة. غريب عجيب الهاشمي، سياحتي إلى الحجاز، حوادث واقعية، (بيروت، ١٩١٥م)، المقدمة.

٢ - صورة العمران في مكة خلال فترة الدراسة

تمتد منازل مكة المكرمة من الشمال إلى الجنوب آنذاك في وادٍ بطول نحو ثلاثة كيلو مترات، وبعرض يقرب من نصف ذلك، ويأتي الحيّز العمراني محصورًا بين سلسلتين من الجبال تكادان تتصلان عند أبوابه، مشكلة حماية طبيعية له. وتغطي البيوت كل سفوح الجبال من ناحية الحرم، ثم تتدرج إلى قلب الوادي، وقد بلغ تعداد بيوت مكة في عام ١٣٢٧هـ/ ١٩١٠م نحو سبعة آلاف بيت، يحتشد فيها زمن الحج ما يزيد على مئتي ألف نفس، وتكثر في منازلها الطوابق المقتطعة، ولا حوش لها في الغالب، إلا ما كان لكبرائها(١٦)، ومبانيها قديمة مشيدة بالحجارة الجيرية، وزينت واجهاتها بالرواشن (البلكونات) ونوافذها بالشيش المثقب (الأرابسك)(١٧).

وتتراوح بيوت مكة بين ثلاثة وخمسة طوابق، مطبوعة بهندسة معمارية شرقية، وملتصقة ببعضها البعض، وتغطي جدرانها صفوف من نوافذ (مشربيات) عليها ستائر دقيقة تتصدى لجيوش الذباب والناموس. والطابق الأرضي يقوم مقام الفناء، أما الأدوار العليا فمقسمة إلى شقق صغيرة، وعلى السقف سور عال، يشكل طابقا مكشوفا، يستخدم للراحة ليلاً، وللطهي نهارًا، تمرح فيه النساء بعيدًا عن أعين الرجال(١٨).

والبيوت في مكة - على بساطتها - نظيفة جدًا، جدرانها مبيضة من الداخل والخارج، وغرفها مفروشة بتخوت منخفضة، تحتها سجاد أو حصير، معدة للجلوس على الأرض، أما زينة الجدران فمن آنية من البورسلين والمعدن ومرايات عدة، وأقوال مأثورة على ورق ملون ومركبة في أطر، أما لوازم النوم فيخفونها في غرف خاصة، إذ

---

(١٦) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٣٨.

(١٧) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ٤٥.

(١٨) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٢٥.

يعدون عرضها ابتذالاً. والغرف والسلالم مكنوسة بعناية، والحمامات لها أرضية من الأسمنت نظيفة، تصرف ببراعة في خزانات بالشوارع محكمة السداد، وحمامات المنازل ليست لها رائحة، لبعدها عن الخزانات، أما الحمامات العامة على قلتها فلها رائحة كريهة لا تحتمل(١٩). وتجلب المياه للمنازل بوساطة سقائين من مجاري عين زبيدة(٢٠).

أما الشوارع في الأحياء القديمة فتتسع وتضيق وتتحني بشكل غير منتظم، وتتصل بها أزقة ضيقة جدًا. أما الأحياء حديثة البناء، مثل: أجياد وجرول والمعابدة فشوارعها أكثر انتظامًا، ومبانيها على جانب من الجمال(٢١)، ونظرًا لعدم وجود أفنية فإنهم يحلبون الأبقار والأغنام في الشوارع، ويربون فيها الدواجن، وهي مرتع للكلاب الضالة، وهي أيضًا غير مرصوفة ولا مضاءة ليلاً إلا بمصابيح جاز يعلقها الأهالي هنا وهناك، وتُكنس الشوارع الكبيرة مرة في اليوم؛ لكنها سرعان ما تمتلئ بالمخلفات، أما الأزقة فتبقى بها الزبالة مدة طويلة، وتتعفن بها الحيوانات النافقة، والسكان يعدون ذلك أمرًا عاديًا(٢٢). وأكثر ما يؤرق الحجاج انتشار الناموس ليلاً، والسبيل الوحيد للخلاص منه الاستتار بناموسية(٢٣).

وفيما يأتي محاور الدراسة:

---

(١٩) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ص ١٤٥، ١٥٦، ١٥٧.

(٢٠) الراعي، في المملكة الروحية، ص ٤٥.

(٢١) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ص ٤٥، ٤٦.

(٢٢) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ص ١٤٤، ١٥٧.

(٢٣) الناموسية: قماش خفيف يظلل السرير، ويحمي النائم من الناموس. الأمير شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، منشور في المختار من الرحلات الحجازية، اختيار وتهذيب محمد حسن عقيل الشريف، (دار الأندلس الخضراء، جدة، ١٤٢١هـ)، ج٣، ص ١٠٢٧.

أولاً: طبقات المجتمع المكي وأنشطتهم

١- الطبقة الحاكمة

وتضم الأشراف والأتراك، أما في العهد السعودي فقد تغيرت الحال؛ ففي المرحلة الأولى تظهر الصورة العامة واضحة من خلال ما سجله الروسي دولتشين بأن مكة يحكمها الوالي (من الأتراك)، والشريف الذي يعين من الآستانة، ويعهد إلى المحتسب بحل الخلافات بكل الوسائل بما فيها الضرب.

يعهد إلى المحتسب بحل الخلافات بكل الوسائل بما فيها الضرب

ولحفظ الأمن في الشوارع كانت هناك دورية عسكرية واحدة قرب الحرم. أما حل الخلافات في باقي مكة فيحكمه العرف بين الناس، فإذا حدثت سرقة يقوم الناس بمحاصرة السارق وإيصاله للسلطات(٢٤).

أما عن الأشراف فقد اعتادت الدولة العثمانية أن تعهد بإدارة مكة المكرمة إلى أحد الأشراف، فينظر في القضايا الكبرى على حسب نظام أربابها، إن كانوا من الأهالي أو من الأغراب. ومن عادة شريف مكة أن يجلس في دار الإمارة يوميًا، فتعرض عليه المسائل المهمة، ويخصص يوم الجمعة لمقابلة الوالي والأعيان وكبار الموظفين. ويسكن الأشراف في الغالب حي أجياد مع الأتراك، ويقضون الصيف في الطائف(٢٥).

وينقسم أشراف مكة قسمين، الأول: يعنى بالأدب والشريعة والتجارة، ويسمون الأسياد. والثاني: يحتكر السلاح والأمور العامة، ويلقبون بلقب الشريف(٢٦). ومن عادة أشراف مكة أن كبراءهم يرسلون أولادهم منذ نعومة أظفارهم إلى البادية، ولا سيما إلى قبيلة

---

(٢٤) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٥٩.

(٢٥) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٣٧- ٣٩.

(٢٦) شارل ديديه، رحلة إلى الحجاز في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، (١٨٥٤م)، ترجمة وتعليق محمد خير البقاعي، (دار الفيصل الثقافية، الرياض، ١٤٢٢هـ)، ص ٢٢٠.

عدوان شرقي الطائف، فينشؤون على البداوة، ويتعلمون الفروسية، والطلاقة في الكلام، ثم يعودون إلى مكة بعد أن تشربوا أخلاق البادية(٢٧).

واحتل الأتراك مكانة عالية في مكة في ظل الحكم العثماني، فكان منهم والي الحجاز ومقره مكة، وله السلطة في الأمور العسكرية والمالية. كما استأثر الأتراك بالوظائف الكبرى في الولاية، والمؤسسات التعليمية والخيرية القائمة على أوقاف تركية. ويسكن الأتراك شعب أجياد لارتفاعه وسعة طرقه، وجاءت بيوتهم على الطراز التركي، وتظهر في مساكنهم علامات الثراء من الزخرف والزينة والبُسط العجمية النادرة(٢٨)، وقلت امتيازات الأتراك عندما رفع الشريف حسين راية العصيان في وجه الدولة العثمانية.

وبعد دخول السلطان عبدالعزيز مكة اجتمع بممثلي الأهالي من العلماء والأعيان والتجار قائلاً: "عليكم أن تختاروا ممثلين لكم بموجب أوراق تمضونها من المجتمعين بأنهم رضوا بأولئك النفر، لإدارة مصالحهم العامة، والنظر في شؤونهم، ويكونون الواسطة بين السلطان والأهلين، فهم عيون لي وآذان للناس"، وبهذا تَكَوَّن المجلس الأهلي بمكة المكرمة بناء على رغبة الملك عبدالعزيز(٢٩).

٢ - طبقة العلماء

احتل العلم الشرعي المكانة الأولى - إن لم تكن الوحيدة - في المجتمع المكي. وفي مقدمة هذه الطبقة يأتي القضاة والمفتون، وفي العهد العثماني كان القاضي يرسل من الآستانة(٣٠)، وكان من مهامه النظر في القضايا الشرعية، كما يرأس حفلات تنصيب الأمراء، ويمثل

---

(٢٧) إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ص ٢٠٣.

(٢٨) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٣٨، ٤٩.

(٢٩) جريدة أم القرى، عدد ٣، ٢٩ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ، ص ٢.

(٣٠) يصرف له مرتب من مصر قدره ٣٦٦ إردب قمح عيناً أو نقداً بموجب أمر سلطاني لخديوي مصر. راجع إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج٢، ص ١٩٥.

سلطة الأتراك الدينية، ويتولى تقديم الخلع السلطانية للأمير. وهناك مفتٍ واحد عن كل مذهب من المذاهب الأربعة(٣١).

وشكل مشايخ الحرم المكي والمعلمون فيه طبقة متميزة، وهم من مختلف المذاهب، ويجرى اختيار شيخ العلماء في الحرم، من قبل الحكومة، من رجال الإفتاء غالبًا، ويتخذ لنفسه نائبًا، ومن مهامه اختيار المدرسين في الحرم، وتوزيع الموارد المالية عليهم وفق رؤيته الشخصية(٣٢). وقد رصد البتنوني أثناء رحلته ثلاثين مُعلمًا بالحرم الشريف، ولحظ عدم عنايتهم بالتعليم؛ نظرًا لقلة العائد المادي، فالراتب من الحكومة العثمانية كان يتراوح بين مئة وخمسمئة قرش عثماني سنويًا(٣٣).

وكانت مكة ملجأ للعلماء المسلمين في عصر سيطر فيه المستعمر الغربي على معظم بلدان العالم الإسلامي. ومن أشهر علماء مكة في هذه الفترة الشيخ محمد بن سليمان حسب الله الشافعي (١٢٤٤- ١٣٣٥هـ) الذي أفتى بتحريم التدخين، وتعرض لهجوم كبير من العلماء الذين أفتوا بكراهيته فقط، ومنهم الشيخ أحمد زيني دحلان مفتي الشافعية، كما تصدى لمحاولة بناء ضريح على قبر أبي طالب(٣٤). ومن علماء مكة السيد صالح بن بكري شطا، الذي ولد بمكة سنة ١٣٠٢هـ، وكان والده من علماء مكة أيضًا، وأصبح من أبرز علماء العهد السعودي، وكان عضوًا بمجلس الشورى عن مكة عام ١٣٤٥هـ، ثم عهد إليه بإدارة المعارف العامة، ثم عُين مساعدًا للأمير فيصل النائب العام(٣٥). ومن

---

(٣١) أحمد السباعي، تاريخ مكة دراسة في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، (الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، الرياض، ١٤١٩هـ)، ط٢، ج٢، ص ٦٦٦.

(٣٢) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤٩٢- ٤٩٤.

(٣٣) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٦٠.

(٣٤) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤٩٢- ٤٩٦.

(٣٥) محمد علي مغربي، أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تهامة للنشر، جدة، ١٤٠١هـ)، ص ص ٦٣- ٧٤.

مشايخ مكة أيضًا أحمد ناضرين (١٢٧٠- ١٣٥٣هـ)، تعلم على يد السيد بكري شطا، وعُين في العهد السعودي عضوًا بمجلس الشورى، ورئيسًا للمحكمة الابتدائية، ثم قاضيًا في المحكمة الكبرى(٣٦).

٣ - طبقة العَامّة

ازدحمت مكة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي بعدد كبير من المسلمين الفارين من مختلف أقطار العالم الإسلامي إثر الهجمة الأوربية، فغدا في مكة من آثار ذلك جبل الترك، وجبل الهندي، وحارة السليمانية (الأفغان)، وزقاق المغاربة، وزقاق البخارية، ونقلت هذه الجاليات معها عاداتها وتقاليدها وأخلاقها، وكثيرًا من صناعاتها(٣٧).

بلغ تعداد سكان مكة عام ١٣٢٧هـ وفقًا لرواية البتنوني حوالي ١٥٠ ألف نسمة، ولم يقدم غيره من الرحالة إحصاء دقيقًا لسكان مكة(٣٨)، وقد أورد توزيعهم كما في الجدول الآتي:

العدد	الجنسية	العدد	الجنسية
٥٠,٠٠٠	أهالي مكة الأصليين	١٠,٠٠٠	أفغان وقندهار
٢٥,٠٠٠	عرب (وأغلبهم حجازيون ويمنيون وحضارم)	٥,٠٠٠	شوام
٢٠,٠٠٠	بخاريون	٥,٠٠٠	مغاربة
١٥,٠٠٠	جاوة (ماليزيون)	٨,٠٠٠	أجناس أخرى
١٢,٠٠٠	هنود		

---

(٣٦) حسن عبدالحي قزاز، أهل الحجاز بعبقهم التاريخي، (جدة، ١٤١٥هـ)، ص ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٣٧) أحمد السباعي، مرجع سابق، ج٢، ص ص ٦٣٩، ٦٤٠.

(٣٨) النسبة هنا حصل عليها البتنوني من رجال الإدارة في مكة، وهي تقريبية، إذ لم يتم تعداد حقيقي في البلدة.

أي أن أهل مكة الأصليين لا يمثلون أكثر من ثلث سكانها. وأكثر سكان مكة من الأغراب، وقد توطنوا مكة، وتعربوا كليًا بمر الزمن، ويمكن تمييز العائلات ومعرفة أصولها(٣٩).

ونتج عن الاختلاط والمصاهرة بين هذه الأنساب المختلفة أن تنوعت قسمات وجوههم وبشرتهم بدءًا من الأبيض تمامًا إلى البرونزي القاتم. وعرب مكة أذكياء لطيفو المعاشرة والتخاطب، مجاملون، متأدبون، مع احتفاظهم بشعور العزة والكرامة، وأغنياؤهم منعمون، يطيب لهم أن يلبسوا أفخر الثياب، ويفرشوا بيوتهم بالمفروشات الجيدة، وهم يحبون الأكل، يستضيفون ويضيّفون(٤٠).

ويأتي في المرتبة الثانية بعد العرب الماليزيون المعروفون بجاوه، وهم يشكلون خُمس سكان مكة، ويعرفون بملامحهم، على الرغم من أنهم يلبسون الثياب العربية، ويتحدثون لغتها، جاء بعضهم بدافع ديني، وبعضهم الآخر بدافع تجاري، ويتميزون بالطبع الهادئ المسالم، حتى صار المثل "طيب ومسالم مثل جاوه"، وهم محبون للعلم، مترابطون، متضامنون، ولهم كبير يدير شؤون الجالية. أما أبناء

---

(٣٩) من أشهر العائلات في مكة على سبيل المثال:

من الهنود: بيت خوقير، والدهلوي، والساب، وحكيم، والناقورة، والمفتي، وعبدالشكور، والميرزا كمال، وجان، وشلهوب، ونور، والطيب، وسنبل، وخوجة بكر، والمسكي، وإلياس، والزرعة، والقرع، والحجمي.

ومن الماليزيين (جاوه): بيت البتاوي، ومنكابو، والزيني، وأرشد، والننتيانا، والفلمباب، وقدسي، وودوم.

ومن الحضارم: بيت بالحارس، وباجنيد، وبانجا، وباحكيم، وباذرعة، وباعيسى، وباعشن.

ومن الشوام: بيت هاشم، والجبري، والخشيقاتي.

ومن الترك: بيت الدرابزنلي، والقرمنلي.

ومن المصريين: بيت القطان، والزقزوق، والرشيدي، والرواس، والقزاز.

ومن البخاريين: بيت كشك، والفاشتلي، والإنديجان.

راجع البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ١٢١.

(٤٠) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٤٥.

القوميات الأخرى فهم بوجه الحصر تجار أو نظار في التكايا التابعة لقوميتهم(٤١).

ويأتي المطوفون والتجار على قمة هذه الطبقة من حيث الثراء، ويستأثر المكيون بالطوافة، إذ لابد للحاج من مرشد يدله، ويقضي له حوائجه، فأكثر الحجاج يجهل المناسك، ناهيك عن الطرق. ولكل مطوف وكيل في جدة يستقبل الحجاج التابعين له، وقد يذهب المطوف بنفسه إذا كان بين الحضور شخصية مرموقة. وللمطوف صبيان(٤٢) وخدم يساعدون الحجاج في عمليات النقل والترحال والسكن، وأحيانًا ينوبون عنه في إرشاد الحجيج إلى المناسك، وأماكن الزيارة والنزهة والشراء. ويحصل المطوف على أجر لقاء الوساطة في تدبير المسكن، ودواب الترحال، وشراء لوازم الحجيج، وإحضار الأضاحي إلى منى(٤٣).

وللطوافة شيخ يحافظ على تقاليد المهنة، ويشرف على المطوفين، ويساعد الحكومة في تطبيق الأنظمة والتعليمات الخاصة بطائفته، ويقرر قبول أعضاء جدد في المهنة، ويتابعهم ويحدد صلاحياتهم، ويراقب سلوكهم وأخلاقهم. وتؤدي الوساطة، والعلاقات الشخصية، والهدايا دورًا بارزًا في قبول المطوفين الجدد، على الرغم من إظهار الشيخ العدل بين أفراد مهنته. ويقوم العضو الجديد بعمل وليمة لأفراد الطائفة، وأمام الجميع يطلب العضو الجديد من الشيخ أن يسمح له بممارسة الحرفة، ويتعهد بالسمع والطاعة، وأن يكون أخًا صالحًا لزملائه، ويقرأ الجميع الفاتحة بنية التوفيق والقبول. وينطبق ذلك على جميع الحرف في مكة(٤٤).

---

(٤١) المصدر نفسه، ص ص ١٤٧، ١٤٨.

(٤٢) يختار المطوف صبيانه من البلدان التي يقوم على خدمة حجاجها، ويسجلهم لدى الحكومة، ويحصلون على أجرهم من المطوف والحجاج، إضافة إلى الهبات والهدايا. راجع: سوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٠١.

(٤٣) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٣٣٥- ٣٣٩.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٣٤١.

وقد سجل الرحّالة قبل عهد الملك عبدالعزيز جهلاً دينيًا لكثير من المطوفين، خاصة في مسألة المزارات، وما ينسج حول بعضها من أساطير، وينظر بعضهم للحجاج نظرة طمع لجني ربح وفير(٤٥).

ويستبد المطوفون بالحجاج، ويرغمونهم على دفع ما يفرضونه من مكوس، لا يفرقون بين غني وفقير. ويقول أمير الحج المصري عام ١٣٢١هـ: "ليس بمكة من يرفع ظلم هؤلاء، فإذا كتبت إلى الشريف أو الوالي رسميًا كان جوابهما: إننا لا نتدخل في أمور الحج"(٤٦)، وقد يعقد المطوفون مزايدة على أغنياء الحجاج. ويسافر المطوفون بعد موسم الحج إلى الخارج؛ لزيارة من تعرفوا عليهم أثناء الموسم، ويعودون محملين بأموال البدل(٤٧) والهدايا(٤٨).

سجل الرحّالة قبل عهد الملك عبدالعزيز جهلاً دينيًا لكثير من المطوفين

أما تجار مكة فلهم المكانة الأفضل، ومعظمهم من الهنود، والمنافس الحقيقي للهنود الحضارم، الذين جاؤوا إلى مكة دون أي ثروة، فيعملون في خدمة التجار، ثم ينتقلون للعمل لحسابهم، عندما يتقنون فن التجارة، ويجمعون قدرًا معقولاً من المال. ويكسب التجار أموالاً طائلة من التجارة، وإقراض المال للأهالي، ويتم إقراض المال بأن يبيع التاجر للمدين بعض حاجات بأسعار عالية جدًا، على أن يدفع ثمنها في وقت لاحق، ويأخذ صكًا بذلك، ثم يعود ويشتريها منه بثمن بخس، ويعطيه الثمن الأخير(٤٩)، ويعرف هذا البيع في الفقه الإسلامي ببيع العينة، وهو من البيوع المحرمة شرعًا.

---

(٤٥) محيي الدين رضا، رحلتي إلى الحجاز، ص ٣٣.

(٤٦) إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج٢، ص ١١٩.

(٤٧) أموال يجمعها المطوف لأداء فريضة الحج نيابة عَمَّن لا يستطيع أداء الفريضة.

(٤٨) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٦٠، ٦٢.

(٤٩) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ص ص ٣١٢، ٣١٣.

وتؤدي مكة دور الوسيط في التجارة استمرارًا لدورها القديم، فتجبى إليها متاجر الغرب لبيعها للحجاج دون أن يكون للمسلمين دور فاعل في صناعتها، حتى إن ما يشتريه الحاج من سجاد للصلاة على سبيل التبرك إنما هو من صناعة الغرب، تضاف إليها الأطعمة، مثل: الجبن والبسكويت وما إليها(٥٠). ولا تنتج مكة سوى أشياء قليلة، مثل: المسابح، والخواتم الفضية، والحناء، والآراك (السواك)(٥١). وتنتشر محلات التجار في كل مكان، فهي تملأ حتى شارع المسعى. وتتحول مكة إلى سوق كبيرة في الحج، ويبدو ليلها كنهارها، الطرق تعج بالناس، فالباعة والحجاج والمتسولون الجميع خرج يلتمس الرزق(٥٢). والأكثر رواجًا تجارة العملة، نظرًا لقدوم الحجاج من مختلف دول العالم، فيشتري التجار العملة بسعر منخفض، ويبيعونها بسعر مرتفع(٥٣).

ولا يتورع تجار مكة - شأن التجار في أي زمان ومكان - عن استغلال الظروف، واحتكار السلع الغذائية، وهذا ما حدث إبان حصار جدة في عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، حيث استمرت الأسعار في ارتفاعها رغم انتهاء الحرب، وفتح الموانئ للاستيراد، فاضطرت الحكومة السعودية إلى إصدار بلاغ لأهالي البلد الحرام كافة، بالتحذير من احتكار الأرزاق والأقوات، وتهديد المحتكرين بمصادرة السلع المحتكرة، وبالجزاء الرادع(٥٤).

أما عن العمال والحرفيين، فالفقراء من أهل مكة يعملون عند التجار الأجانب، يتجولون بالبضائع في الحارات والأزقة، يعرضونها

---

(٥٠) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٣٥.

(٥١) محمد صادق باشا، رحلة كوكب الحج، في المختار من الرحلات الحجازية، ص ٦٤٦.

(٥٢) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٣٩.

(٥٣) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ٤٩.

(٥٤) جريدة أم القرى، عدد ٩، ١١ رجب ١٣٤٣هـ، ص ٣.

على الحجاج في المنازل، ولهم نظير عملهم جزء بسيط لا يفي بحاجتهم(٥٥). وللحلاقة أهمية خاصة في بلد الله الحرام؛ لأن التحلل من الحج والعمرة يتطلب الحلق أو التقصير، لذا انتشرت محلات الحلاقة بجوار الحرم، وازدحم بهم شارع المسعى. كما مارس الحلاقون الحجامة والختان، ومداواة الجراحات البسيطة، وكان الحلاقون يتقاضون من الفقراء مقابلاً عينيًا مثل: قطع الخبز(٥٦). وهناك حرف البناء والنجارة وما يتعلق بهما، والعرب حرفيون مهرة في النقش على الخشب والحجر، ويمتلكون ذوقًا رفيعًا(٥٧).

والصناعة لا تخرج عن صياغة بعض قطع ذهبية وفضية، والحدادة بسيطة، لكنها دقيقة في عمل الأسلحة، وبمكة فرن لصناعة القلل والدوارق الفخارية، وكلها في يد الأجانب(٥٨). أما حرفة السقاية فيقوم بها بعض الفقراء، ومع موسم الحج يتوافد أعراب من المناطق المحيطة؛ فيشتغلون بالسقاية(٥٩). واختفت باقي الحرف من الصورة لدى الرحالة(٦٠). ويقوم أهل مكة بتربية الماشية والأغنام، وبيعها للحجيج؛ ليكون منها الهدي، إلى جانب تقديم الخدمات للحجيج(٦١).

---

(٥٥) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ٤٨.

(٥٦) حسن قزاز، مرجع سابق، ص ٨٠.

(٥٧) ريزفان، الرحلة السرية، ص ١٤٧.

(٥٨) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٦٠.

(٥٩) الراعي، في المملكة الروحية، ص ٩٥.

(٦٠) ومن هذه الحرف صناعة السبح من اليسر المستخرج من البحر الأحمر، ومن مختلف أنواع الخشب المحلي والمستورد، ومن العود ونوى البلح. وفي جبال مكة صناعة تفتيت وتهذيب أحجار البناء. والحرف الخدمية، مثل: الخياطة، والحرف المتعلقة بالمأكل، ويقوم بها الجزارون، والطحانون، والخبازون، والسقاؤون، وصناع القرب، والحلوانية، ولكل طائفة شيخ يحكم بين أبناء طائفته راجع: حسن قزاز، مرجع سابق، ص ص ٦٨- ٧٧.

(٦١) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ص ٢٥٢.

ودعت هذه الحالة الاقتصادي طلعت حرب أن يلفت الأنظار إلى مشروعات عدة تخدم أهالي البلد الحرام، منها إنشاء شركة لتعبئة مياه زمزم في زجاجات معقمة، وبيعها في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وتزويد مكة بالكهرباء؛ لإنشاء مصانع نسيج ودباغة، ومسالخ صحية، وورش لتصليح السيارات. وأشاد بمصنع كسوة الكعبة الذي وفر فرص عمل للكثيرين(٦٢). وهذه نظرة عملية إيجابية تميز بها طلعت حرب رائد الاقتصاد المصري الحديث، وصاحب الشركات المتعددة آنذاك في مصر، مثل: مصر للغزل والنسيج، ومصر للطيران، ومصر للملاحة، وغيرها. وقد لقيت رؤيته رواجًا في مكة بعد ذلك.

٤ - الرقيق

اعتاد أهالي الحجاز على استخدام الرقيق، فمدار حركة النقل الشاقة على العبيد، إذ منهم الحمّالون والحطابون والجمّالون والسقاؤون والخدم. وفي مكة قلت تجارة الرقيق تدريجيًا، لكنها كانت تنتعش في موسم الحج، فقد يشتري الحجاج العبيد ليعتقوهم، إما كفارة أو إحسانًا، والرقيق المعتوق يحمل وثيقة بذلك من القاضي. وقد يشتري الحاج عبدًا أو أمَةً ويعود بها إلى بلاده، فعندما سافر الشيخ حسن الجبرتي (المصري) إلى مكة للحج اشترى جارية أهداها لزوجته، فأعتقتها، وأقامت لها منزلاً، وزوجتها من الشيخ حسن، ورزقت منه بأولاد(٦٣).

ويجلب الرقيق من الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، وهم على جنسيتين؛ الزنوج السود تمامًا، ويشتريهم الحجازيون رجالاً ونساءً

---

(٦٢) محمد طلعت حرب، بعض ما رأيناه في الحجاز، في المختار من الرحلات الحجازية، ص ص ١٣٠٥- ١٣٠٧.

(٦٣) إلهام ذهني، مصر في كتابات الرحّالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، (سلسلة مصر النهضة، عدد ٥١، ١٩٩٥م)، ص ٢٧٣.

للعمل فقط. أما الأحباش الأقل سوادًا فيشترون النساء منهم كمحظيات. وبعض الرقيق مستولد في مكة. وفي الحجاز يشترط أن يثبت رق العبد في بلاده قبل البيع بسؤال المشتري للعبد نفسه(٦٤). لكن هذه المسألة كان يشوبها كثير من الغموض، فمعظم الرقيق أولاد مخطوفون، يشتريهم تجار محتكرون ينقلونهم على سفن خاصة إلى سواحل الحجاز، حيث يباع الفتى منهم ما بين خمس وعشر ليرات عثمانية(٦٥)، والفتاة الزنجية الراشدة بحوالي عشرين ليرة، والفتاة الحبشية، والعامل الزنجي أو الحبشي ما بين ثلاثين وأربعين ليرة. وفي مكة لا يكاد يخلو بيت من عبدٍ وأمَة يقومان بجميع أعمال المنزل. ويشك كثير من أهل الحجاز في شرعية هذا الرق، فيعتقون الرجال، ويعقدون النكاح على بعض النساء(٦٦).

ويعمل الرقيق النوبي (الزنجي) في الأعمال الشاقة من قطع الأحجار والأحمال والبناء، ويتعلمون حرفة كما يتعلمون شعائر الإسلام. ولكل مجموعة منهم شيخٌ يفض منازعاتهم، ويعاقب المذنبين. ولهم احتفالٌ شعبيٌ خاصٌ بهم من بعد ظهر الخميس حتى صباح الجمعة يعزفون فيه موسيقاهم على أدوات زنجية، مثل: الطنبورة(٦٧)، والطبول، ويغنون أناشيدهم، ويرقصون رقصاتهم الشعبية، ويحزم أحدهم بحزام معلق به حوافر الغنم، ويرقص، فيهز نفسه هزًا عنيفًا، ويحدث صوتًا قويًا، ويصطف الحضور حلقة دائرية

---

(٦٤) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ٤٩

(٦٥) الليرة العثمانية: عملة ذهبية كانت قيمتها مئة قرش ذهبي؛ أي: جنيهًا ذهبيًا، وهي تعادل أيضًا ١١٨ قرشًا فضيًا. عن قيمة العملات في هذه الفترة، راجع: عبدالله السبيعي، اقتصاد الأحساء والقطيف وقطر أثناء الحكم العثماني الثاني ١٢٨٨-١٣٣١هـ/ ١٨٧١-١٩١٣م، (الرياض، ١٤٢٠هـ)، ص ٨١.

(٦٦) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ص ١٥٢، ١٥٣.

(٦٧) آلة وترية لها ستة خيوط وعليها ريش. راجع: هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ص ٣٢١.

يغنون لساعات عدة ألحانًا رتيبة، ويتقدم شابان وسط الحلقة، فيتبارزان بالعصا، وبعد ظهر الجمعة يعودون لأعمالهم(٦٨).

وقد زار دولتشين سوق النخاسة في مكة، فوجده حوشًا ليس بالكبير، يطل على غرف لمبيت الأرقاء ليلاً، كان بالسوق آنذاك حوالي ثمانين نفسًا، معظمهم شابات حبشيات، منهن ثلاث معهن أطفال رضع، جميعهن مزينات ومصفوفات للعرض، والشباب مقصوص الشعر، والأطفال يلعبون، والتاجر عربي يعلن عن بضاعته، فيأتي المشترون، ويعينون البضاعة(٦٩). ويقبل المشتري شراء الرق بعد اقتناعه وبعد سؤاله: هل تقبل خدمتي؟ وإذا حاول الدلال خداع المشتري، فقد يظهر الرقيق الخدعة للمشتري حتى لا يجني هو عقباها. وقد تبكي الفتاة عند بيعها من قبيل الحزن على مفارقة الزميلات(٧٠). وفي بداية العهد السعودي وضعت الإماء حجابًا، فلا يرى وجههن إلا عند الشراء. وللأمة أن تبدي موافقتها بإيماءة أو ابتسامة تعلو وجهها(٧١).

ومعاملة الرق مرهونة بأخلاق السيد، ولكنها في الغالب معاملة حسنة، فكثير من المكيين يحسنون إلى الرقيق ويعدونه من أفراد الأسرة. وقد يتعرض الرقيق للضرب عقابًا، وهذه من أصول التربية حتى للأولاد في البيئة العربية، الأمر الذي يساء فهمه من قبل الأوربيين. ويضيف هورخرونيه قائلاً: "إن آلاف الزنوج الذين يحملون إلى ديار الإسلام حين يتذكرون حياتهم الأولى يعتبرون أنفسهم خُلقوا من جديد من خلال الاسترقاق، إنهم لا يريدون العودة إلى حياتهم الأولى"(٧٢).

---

(٦٨) المصدر نفسه، ص ص ٣٢٠، ٣٢١.

(٦٩) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٥٣.

(٧٠) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٣٢٤، ٣٢٥.

(٧١) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ص ٢٧٥، ٢٧٦.

(٧٢) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٣٢٥، ٣٣٠.

والإساءة الحقيقية للرقيق، والتي لا يقرها الإسلام، هي عملية الخصي، ويستخدم نتاجها في خدمة نساء الطبقة العليا، أو يقومون بالخدمة في الحرم، ويطلق عليهم الأغوات، وهؤلاء يستوردون مخصيين من الخارج، وقد تناقص عددهم مع بداية القرن الرابع عشر الهجري(٧٣).

وفي السادس من نوفمبر ١٩٦٢م/ ٩ جمادى الآخرة ١٣٨٢هـ أصدر الأمير فيصل - رئيس الوزراء - أوامره بإنهاء الرق في المملكة، وعتق الرقيق، وتعويض أصحابه عن أثمانه، وذلك في عهد الملك سعود(٧٤).

ثانيـاً: الأسـرة والعـادات والتقاليـد

المرأة

اتفقت آراء الرحالة على أن المرأة المكية أشد نساء العالم تمسكًا بالزي الإسلامي، وأعظمهن صيانة لشرفها، وأحفظهن لأنوثتها، فهي لم تنغمس في تيار المدنية الجارف، وهي بعيدة عن الاختلاط، حتى في التزاور لا يلتقي الجنسان، وتخرج من بيتها وقد غطت وجهها بغطاء كثيف لا يتخلله سوى فتحتين صغيرتين أمام العين، وقد نسجتهما نسجًا خفيفا، ولا يدخل على المرأة خادمها، وإنما يكلمها من وراء حجاب. ولا يدخل المنزل رجل قط إلا في حضور الزوج. ومن السلبيات أن بعض النساء يدخن النرجيلة، ويتركن شؤون المنزل للخدم، ويثقلن كواهل أزواجهن بالنفقات الباهظة(٧٥).

وملابس المرأة المكية في بيتها متنوعة، ومطرزة الحواشي بالذهب والفضة، وتشد على وسطها حزامًا ذهبيًا، وهناك غيرة بين النساء

---

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٣٣١.

(٧٤) صلاح الدين المنجد، فيصل بن عبدالعزيز من خلال أقواله وأفعاله، (بيروت، ١٩٧٢م)، ص ٥٠.

(٧٥) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٥٠. وسوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٥١.

في الأزياء، الأمر الذي يرهق الرجال. والمرأة المكية طبيبة أسرتها بما لديها من خبرة في الوصفات من الأعشاب والتوابل(٧٦). وتتمتع نساء مكة بقدر كبير من الحرية في ارتياد الأسواق والمساجد وحدهن، وتعمل بعضهن بالتجارة في الشوارع، وقد تقع عليهن العين في المحكمة أمام القاضي حاملات الشكاوى ضد أزواجهن أحيانًا(٧٧)، فللمرأة أن تتقدم بطلب طلاق للقاضي لسبب ما، مثل: المعاملة السيئة، أو العجز عن النفقة، أو عدم توفير المسكن المناسب. والمرأة المكية لها حق تقليدي مكتسب يتمثل في عدم السفر مع زوجها خارج مكة. والأرامل والمطلقات منهن يرحبن بالزواج من الأجنبي إن كان غنيًا، وبقي في مكة(٧٨).

الزواج

تتناسب تقاليد المجتمع في الزواج مع طبيعته، فالاختلاط بين الأولاد والبنات حتى سن الثامنة فقط، وقد تبقى صورة الفتاة عالقة لدى الشاب، وتشكل أساسًا في اختياره. وفي الغالب يكون الاختيار في الزواج الأول لرغبة الأسرتين في المصاهرة، دون رغبة الزوجين، والأمر لا يكون فيه إكراه حيث يرضى الأبناء باختيار الأهل. ولا يستطيع الشاب رؤية وجه الفتاة التي يريد خطبتها إلا إذا نجحت أمه أو أخته في استدراجها إلى غرفة الحريم، فيراها من عين سرية تطل من غرفة خاصة على غرفة الحريم(٧٩).

وتبدأ مراسم الخطبة بزيارة سيدة من أهل الشاب لبيت العروس، فإن وجدتها مطابقة للمواصفات أعلنت رغبتها في المصاهرة، ويظهر الرد في حسن الاستقبال وعبارات الترحاب. ثم ترسل أسرة العريس

---

(٧٦) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤١١، ٤١٣.

(٧٧) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ٤٦.

(٧٨) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤٠٧- ٤٠٩.

(٧٩) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٧٠.

متحدثًا لبقًا لتأكيد الرغبة في المصاهرة، وتقرأ الأسرتان الفاتحة لتأكيد الخطبة، ثم يقدم أهل العريس المهر على صينية من فضة، ومعه قطع من الذهب والحلوى والهيل والفل، والصينية مغطاة بقطعة من التل حواشيها مطرزة بالذهب، ثم يعقد القران في المسجد الحرام غالبًا، ويستكمل الحفل في منزل العريس(٨٠).

وتتحدد قيمة المهر وحفلة الزفاف طبقًا لمستوى الأسرتين، والمهر يضمن حياة كريمة للزوجة في حالة الانفصال أو وفاة الزوج، لذا تغالي أسرة العروس في المهور، كما تبالغ في مستوى حفلة الزفاف؛ الأمر الذي يؤخر سن الزواج(٨١). ويجامل أهل مكة بعضهم بعضًا في إطار تكافلي، فتتلقى أسرتا العريس والعروس الهدايا في ليلة الصنيع (الحنة) من أرز وسكر وشاي وسمن وخراف. وقد يستعير أهل العروس جملة من الحلي، لذا وجد من امتهن تأجير أنواع الحلي مدة الفرح(٨٢).

ويستمر حفل الزواج ثلاث ليالٍ، في الليلة الأولى تتزين العروس بالحناء والحلي، وتصفيف الشعر وما إلى ذلك على يد سيدة متخصصة، وتتوافد عليها الصديقات، فيغنين بالدفوف، ويستمر الحفل إلى منتصف الليل. وفي الليلة التالية يتم تجهيز كرسي الزفاف (الأريكة) بالستان (نوع من القماش)، والحلي في غرفة بالمنزل، وتعلق القناديل أمام المنزل، ويقدم الغداء من الأرز واللحم، ويرسلون صينية طعام لبيت العريس، ويستمر غناء الجواري إلى آخر الليل(٨٣).

---

(٨٠) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ٤٤٥.

(٨١) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ص ١٦٧، ١٦٨.

(٨٢) محمد عمر رفيع، مكة في القرن الرابع عشر الهجري، (منشورات نادي مكة الثقافي، ١٤٠١هـ)، ص ٨٧.

(٨٣) لا يختلف الوصف عمّا كتبه مؤرخو الحياة الاجتماعية في الحجاز. راجع: حسن قزاز، أهل الحجاز، ص ص ٣٧ - ٤١. ومحمد عمر رفيع، مرجع سابق، ص ص ٨١- ٨٧.

وفي اليوم الثالث (الزفاف) تقرع الطبول طوال النهار، وتغني الجواري، ويفتح الجيران أبوابهم لاستقبال الضيوف، وتتزين النساء المدعوات بأجمل الملابس والمجوهرات، والشعر المضفر بقطع العملة القديمة ومغطى بيشمك(٨٤) مطرز بالذهب، بدلاً من المحرمة المعتادة، ويرتدين ثوبًا من الحرير الخفيف الشفاف فوق الصديري والسروال، وقريبات العروس يرتدين القلادة المتدلية من الرقبة إلى الركبة(٨٥). بينما تقوم الماشطة بتزيين العروس بالحليّ والذهب واللؤلؤ، وترتدي العروس قلادة طويلة من حبات التفاح الصغير والورد والفل والقرنفل، ثم تقوم الجواري بزفافها(٨٦).

ولا تخرج العروس من منزل الزوجية لمدة سنة كاملة، تتدرب خلالها على بعض الأعمال المنزلية، بعدها يمكنها أن تخرج لزيارة بيت أهلها لأول مرة بعد الزواج، ويمكنها أن تذهب للتسوق(٨٧).

استقبال المولود

تأتي تسمية المولود ليلة السابع في حفلة يدعى إليها الأهل والأصدقاء، وقد يختار الوالدان اسم المولود أو يتركانه للشيخ العالم الذي يحضر الحفل، فيتسلم الطفل، ويؤذن في أذنه اليمنى، ويقيم في اليسرى، ويهديه بعض المال، ثم يعطي الحضور هداياهم للطفل، وبعد تقديم الحلوى ينصرف الحضور، ثم يعودون في اليوم التالي لحضور الوليمة، وتذبح فيها شاة أو اثنتان، وكثير من المكيين يقوم بهذه العادة دون إقرانها باسم العقيقة. أما حفلة النساء فتكون بعد أربعين يومًا، للاحتفال بالأم، وفيها يتناولن الطعام، ثم يتوجهن للحرم

---

(٨٤) اليشمك واليشمق كلمة تركية بمعنى خمار يغطي نصف وجه المرأة. رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: جمال خياط، (بغداد، ٢٠٠١م)، ١١/٢٤١.

(٨٥) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤٤٦، ٤٤٧.

(٨٦) محمد عمر رفيع، مرجع سابق، ص ٨٧.

(٨٧) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٦٨.

عند المغرب معهن الطفل، ويسلمنه لأحد الأغوات، فيضعه على باب الكعبة قرابة عشر دقائق، ثم يعيده لأمه، ويتلقى منها هدية، ويعود الجميع إلى المنزل بعد صلاة العشاء(٨٨).

عادات الملبس والمأكل

تأثرت أزياء أهل مكة باختلاط أجناس سكانها، فترى مجموعة مختلطة من أزياء البلدان الإسلامية عمامة هندية، وجلباب مصري وجبة شامية، ومنطقة تركية فيها خنجر تراه في حزام الأشراف مفضضًا أو مذهبًا، وكثيرًا ما يكون مرصعًا بالأحجار الكريمة. وقد حافظت طبقة الأشراف على لباسها، فلا ترى فيه اختلاطًا. وتكثر في لباس أهل مكة الألوان الزاهية وخصوصًا الأحمر والأخضر والأزرق والوردي(٨٩).

وللمكيين ولع خاص بالتأنق في الملبس، فيلبس العلماء والتجار والطبقة المتعلمة فوق الملابس الداخلية شاية عبارة عن جبة مفتوحة تربط بحزام من الوسط لقفلها، وفوقها جبة واسعة فضفاضة بأكمام واسعة وعلى الرأس عمامة(٩٠). ويظهر أولاد الحارة من العمال، وصغار الباعة، وأصحاب الحرف في زي بسيط مكون من ثوب يشدون عليه حزامًا في وسطهم؛ ليزيدهم قوة أثناء العمل، يضيفون إليه أحيانًا ميتانًا(٩١). أما العامة فترى الرجال يوشون ملابسهم بالتطريز، حتى تجد السروال مشغولاً على حافة رجله، والجبة أو الجاكيت من ألوان زاهية، ويتعممون بشال مطرز وملون فوق طاقية من البفتة(٩٢). أما الملابس في ظل الحكم السعودي فهي الجلباب

---

(٨٨) المصدر نفسه، ص ص ٤٣٢، ٤٣٣.

(٨٩) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٤٢، ٤٩.

(٩٠) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ٣٤٩.

(٩١) الميتان: معطف قصير (جاكيت)، السباعي، تاريخ مكة، ص ٦٤٥.

(٩٢) الراعي، في المملكة الروحية، ص ٤٨.

الأبيض - في الغالب - وتحته سروال، وقد يلبس كبار السن وأصحاب المناصب عباءة، وتغطي الرأس طاقية بيضاء فوقها "غطرة بيضاء أو "شماغ" أحمر وعقال(٩٣).

أما بالنسبة للمأكل فغذاء أهل مكة التمر مع السمن، واللحم مع العسل، وخبزهم من الحنطة، وذبائحهم من الجمال والأغنام، وقليل من الدجاج البلدي(٩٤). وتتمتع مكة برخص المعيشة، فاللحوم والخضراوات متوافرة لا يرتفع ثمنها إلا في موسم الحج(٩٥). ويهتم أهل مكة بالطعام الدهني المكون من الأرز واللحم والتوابل مرتين في اليوم ظهرًا ومساءً. والماء مبرد في أباريق وجرار مسامية فخارية توضع في مجاري الهواء في المشربيات(٩٦). ويتفنن المكيون في إعداد الطعام على الطرق العربية والهندية والشامية والمصرية والتركية. ويتفاخرون بكثرة الأطعمة، ويقلد صغيرهم كبيرهم في التظاهر بالكرم ولا سيما في رمضان(٩٧).

والشاي من ضروريات الحياة في مكة، فالجميع يشربونه، ولهم اهتمام خاص به، فكل منزل به موقد للشاي، ويشربونه ثقيلاً جدًا ومحلى تمامًا وبمقادير صغيرة، وكثيرون يدخنون التبغ، وعلى الأغلب النرجيلة(٩٨).

ومن عادة أهل مكة أن توجه كل حارة على حدة الدعوة سنويًا للشريف، فإن قبلها أقيمت وليمة في المتنزهات خارج مكة، فيسير

---

(٩٣) إبراهيم فوزان الفوزان، إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة، (الرياض، ١٤٠١هـ)، ص ٣٤٤.

(٩٤) محمد صادق، كوكب الحج، منشور في المختار من الرحلات الحجازية، ص ٦٤٨.

(٩٥) محمد رشيد رضا، رحلة الحج، منشور في المختار من الرحلات الحجازية، ص ٨٨٣.

(٩٦) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٤٦.

(٩٧) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٤٩.

(٩٨) الراعي، في المملكة الروحية، ص ٦٧. وريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٤٦.

إليها في موكب فخم تجري أمامه خيالة العرب، والناس يهتفون (يعيش)، وبعد الطعام يلعب العرب ألعاب الفروسية بالخناجر والسيوف إلى آخر النهار، ثم يعود الشريف في موكبه أول الليل. كما كان من عادة أهل مكة الإفطار في الحرم في رمضان، لكن الشريف عون أبطل هذه العادة مراعاة لنظافة الحرم(٩٩).

وعامة أهل مكة يأكلون اللحم والثريد والأرز. أما صورة الحياة الحديثة في المأكل - التي سجلها هيكل في أول العهد السعودي - فيمثلها خاصة القوم، الذين يتكلفون في حضرة الأغراب فيجلسون على الكراسي، ويستخدمون الملاعق والشوك. ويحرصون على عادة انتقلت لهم مع أهل نجد، فما أن يمتلئ المجلس حتى يدور عليهم الخدم بالشاي والقهوة، ومباخر يحرق فيها عود ذكي الرائحة. فيحبسون عبقه تحت العباءة، ويستنشقونه(١٠٠).

ثالثاً: الأمراض الاجتماعية

تتعدد صور الأمراض الاجتماعية من سرقة وسحر وشعوذة وتسول إلى ارتكاب الفواحش. فما أبعاد هذه الصورة؟ وما دور السلطة السياسية في التصدي لها؟

وأول هذه الصور السرقة وقطع الطريق، وفي الغالب يكون سكان مكة والحجاج هم المتضررين، أما الفاعل فهو من البدو أو من القادمين من الخارج. فالبدو يتتبعون القوافل كالذئاب الجائعة التي تَتَبَّع القطيع، متخفين نهاراً، وينشطون عندما يرخي الليل أستاره. ولم تستطع سلطة شريف مكة والوالي العثماني التصدي لاعتداءات البدو بأية وسيلة(١٠١). ولا يسلم أهل مكة من اللصوص، فيتخلف كثير منهم

---

(٩٩) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٤٩، ٥٠.

(١٠٠) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٢٩.

(١٠١) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ص ١٢٢ - ١٢٤.

عن أداء فريضة الحج، لحراسة بيوتهم، فيقطعون ليلهم سهرًا، ويطلقون نيران بنادقهم بين الحين والآخر، إعلانًا بأنهم يقظون(١٠٢).

أما في العهد السعودي فأصبح قطع يد السارق أمرًا ظاهرًا، لذا يقع الناس على الشيء في الطريق فلا يقربونه، بل ربما مالوا إلى طريق غيره، حتى يمر شرطي فيحمله ويبحث عن صاحبه، وتنشر أخبار اللُقطات في جريدة أم القرى. أما العشائر التي اعتادت السطو، فينذرها الملك عبدالعزيز ثلاث مرات، فإن لم ترتدع، بعث عليهم أحد رجاله في فرقة من الإخوان لتأديبهم(١٠٣). ومن مظاهر هذه الصورة الإيجابية أن التجار يهرعون إلى الصلاة في المسجد، تاركين حوانيتهم مفتحة الأبواب وهم في مأمن من اللصوص. وتطبق الحكومة السعودية الحدود علنًا، وتعلن أسماء المجرمين وجريمة كل منهم والقصاص الذي لحق به، في لوحة معلقة على أسوار قسم الشرطة، كتب في أعلاها الآية الكريمة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١٠٤)، فأصبح استتباب الأمن في الحجاز حديث الناس وسمر العائدين من رحلة الحج(١٠٥).

يهرع التجار إلى الصلاة في المسجد، تاركين حوانيتهم مفتحة الأبواب دون حراسة وهم في مأمن من اللصوص

والصورة الثانية من صور الخلل الاجتماعي خاصة بالسحر والشعوذة الذي جاء إلى مكة المكرمة من وسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا. وتكمن الدوافع في محاولة إيذاء الآخرين لحقد أو حسد، وكان التصدي لهذه الشرور على الدرجة ذاتها من الجهل، فاضطر كثير من أهل مكة آنذاك أن يعلقوا الحجب والتمائم في أعناقهم، أو أن يلبسوا

---

(١٠٢) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٥٢.

(١٠٣) إبراهيم عبدالقادر المازني، رحلة الحجاز، منشور في المختار من الرحلات الحجازية، ص ص ١٠٥٨، ١٠٥٩.

(١٠٤) سورة البقرة، آية: ١٧٩.

(١٠٥) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ص ٥٣- ٥٦.

خاتمًا صغيرًا وقاية من أنواع الشرور، وعلق بعضهم حُجُبًا مغطاة بصفائح من فضة على صدور أبنائهم، وعلق بعضهم الآخر قطعًا من العملة القديمة. وانحرفت الرقية، فإذا مرض أحد أفراد الأسرة كانت المرأة تحرق البخور مع المستكة؛ لتخويف قوى الظلام، أو أن تحرق الفاسوخ مع الملح في مبخرة نحاسية للوقاية من الحسد، كما كانت تنذر النذور للموتى من المشايخ في حالة شفاء المريض. أو أن يأتي المريض أحد المشايخ، فيكتب بعض الحروف والكلمات على ورقة، ويحرقها، ثم يذيبها في ماء يشربه المريض. ويضع التاجر على باب المحل حذاءً قديمًا للوقاية من العين. وفقد المكيُّون كثيرًا من متع الحياة بسبب الخوف من العين والحسد(١٠٦).

وجاء انتشار هذه الخرافات العلاجية في غياب الوعي الطبي، وندرة الأطباء المتخصصين، ففي مكة - شأن معظم العالم الإسلامي آنذاك - كان الطب مهنة حلاق الصحة، الذي يقوم بالحجامة، والختان، والكي، ومعالجة الجروح، كما مارس الطب غير المتخصصين ممن ورثوه عن أهليهم، فيتحدث أحد الرحالة عن طبيب مشهور، مهنته الأصلية صهر الذهب والفضة، وتشكيل الحلي، وله خبرة في تقطير الزيوت العطرية، وتصليح الساعات والبنادق، ومع ذلك يمارس الطب العام بكفاءة، ويتعرف على المرض من خلال جس النبض، والنظر في العين واللسان، ويقدم وصفات مستخلصة من عند العطار(١٠٧).

وهناك أيضًا تلبس الجن، ويسمى الزار، والغريب أن معظم المصابين به من النساء، ويُعتقد أنه لا يطرد من الجسد إلا على يد شيخة الزار، وبمطالب معينة من ذهب وملابس فاخرة ومأكولات متنوعة، وبطقوس خاصة منها دق الطبول والغناء، وذبح شاة يلطخ بدمها أجزاء من جسد المريضة، مع ضربها ضربًا خفيفًا، وغيرها من

---

(١٠٦) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤١٧- ٤٢٣.

(١٠٧) المصدر نفسه، ج٢، ص ٤١٤.

الممارسات الغريبة. ويحضر حفل الزار عدد من صديقات المريضة؛ حيث يتناولن الطعام والشاي والقهوة، وتستهويهم العملية، فتتصيدهن شيخة الزار واحدة بعد أخرى، ويجد الرجل نفسه مضطرًا لتلبية رغبة زوجته في دعوة شيخة الزار، وتكرار المأساة، وإلا صبغت حياته بنكد أسري لا حد له(١٠٨).

وتتمثل الصورة الثالثة في الفواحش والموبقات، إذ يشير أحد الرحالة إلى وجود موبقات بحجم طبيعي لا يُخرج المجتمع عن وقاره(١٠٩). وقد تصدت الدولة السعودية لمثل هذه الجرائم، فأشارت جريدة أم القرى إلى "وقوع حادثتين أو ثلاث - دون أن تحدد نوعها - من بعض أهل الفسق والفجور، مما لا يرضي الله، لذا دعا السلطان عبدالعزيز أعضاء المجلس الأهلي، وبعض الوجهاء، ومشايخ الحارات، وذاكرهم في اتخاذ الوسائل اللازمة للأخذ على يد السفهاء....، وأمر بنشر بيان عام بالترتيبات التي تقرر في شأن معاقبة من ينتهك حرمات الله في البلد المطهر وفق الشريعة الإسلامية، وما ليس فيه حد فرض فيه من التعزير ما يكفي لردع كل عاصٍ"(١١٠).

والصورة الرابعة للمتسولين أو المتنطعين، الذين ينتشرون في مكة، وبخاصة في موسم الحج، وينتشرون في الحرم الشريف يستجدون الناس سواء من ذوي البشرة السوداء أو من دول وسط آسيا، حيث يفد المتسولون بوصفهم دراويش بملابس رثة، ويمرون على البيوت، يحمل الواحد منهم عصا بها قطع حديدية، تصدر أصواتًا تصاحب مدائح قصيرة مقرونة بطلب الإحسان. ومعظم هؤلاء لا يفكرون في العودة إلى بلادهم(١١١).

---

(١٠٨) المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٢٥.

(١٠٩) المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٤٠٦- ٤٠٩.

(١١٠) جريدة أم القرى، عدد ٣٧، ٢٢ صفر ١٣٤٤هـ، ص ٣.

(١١١) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ٣١٢.

ويرى أحد الرحّالة أن زيادة نسبة المتسولين في مكة ترجع إلى عوامل عدة، منها الخلط بين التوكل والتواكل، وقد شجعت الدولة العثمانية عقلية التواكل، وعملت على تعميقها لضمان بقائها، بإجراء الأرزاق على الأغراب الذين توطنوا مكة، وشجعت الميسورين على حبس الأوقاف لإجرائها عليهم. وأسهمت أموال الأوقاف المصرية التي تذهب سنويًا لهؤلاء في تعميق الفكرة ذاتها. لكن تم الاتفاق مؤخرًا بين الحكومتين المصرية والسعودية (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م) على صرف هذه الأرزاق في مسارها الصحيح، مثل: تعبيد الطرق، وتعمير المنشآت الإسلامية. كما أدى النسيج المختلط للمجتمع المكي إلى عدم وجود الحمية الكافية لمنع التسول، حرصًا على مظهر بلدهم(١١٢).

ويظهر المدخنون في الصورة الأخيرة، فقد عرف المكيون - شأنهم شأن باقي العالم العربي - التدخين منذ القرن الحادي عشر الهجري، ثم تطور وانتشر وتعددت أنواعه، وفشي في مكة استعمال الجراك(١١٣)، وانتشر تدخين التبغ الملفوف (السجائر) بشكل مخيف، بحجة أنه ليس فيه نص تحريم، غير أنه ثبت ضرره بشكل قاطع، فمنعته الحكومة السعودية، وأعلنت حرمته، وتابعت لجنة الأمر بالمعروف تنفيذ الإعلان، فلم يجرؤ أحد من أهل البلد أو الحجاج على التدخين جهرًا(١١٤).

---

(١١٢) هيكل، في منزل الوحي، ص ص ١٣٨- ١٤٠.

(١١٣) محمد عمر رفيع، مرجع سابق، ص ص ٧٨-٧٩.

(١١٤) جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب "خمسة قرون من المغامرة والعلم"، ترجمة قدري قلعجي، تقديم الشيخ حمد الجاسر، (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٣م)، ص ٢٠٣.

رابعاً: المؤسسات الاجتماعية والترفيهية والتعليمية

المتنزهات والحمامات العامة

عادة أهل مكة بعد انقضاء موسم الحج أن يعلنوا أفراحهم، فيزوجون أولادهم، ويقيمون حفلاتهم ورحلاتهم في المتنزهات(١١٥)، وأكثرهم يقترض النقود بفائدة كبيرة؛ لينفق منها على تلك الرحلات على أمل أن يسددها في موسم الحج(١١٦). ومن عادتهم أيضًا إقامة الولائم في المتنزهات بضواحي مكة. وبعد فراغهم من الطعام يجلسون للسمر(١١٧) الذي يتضمن سماع بعض الأغاني على أنغام العود والربابة والقانون، كما تقام مسابقات رياضية في الجري، ولعب الكرة، والشطرنج، ثم ينصرفون(١١٨). وإن بقيت الولائم في العهد السعودي فقد اختفت حفلات السمر لما تتضمنه من محظورات شرعية.

وفي مكة حمامان على الطراز الروماني الموجود في مصر، يتغذيان من مجرى ماء عين زبيدة، أحدهما بالعمرة بناه محمد باشا وزير السلطان سليمان عام ٩٨٠هـ، وثانيهما بالقشاشية، ويسمونه حمام النبي، ولا يعرف بانيه على وجه الدقة(١١٩).

المقاهي ودور السمر

تكثر في شوارع مكة المقاهي البلدية، وتمتد حتى تخالط الحوانيت ومحلات الحلاقين في شارع المسعى نفسه، وترى فيها دككًا وكراسي

---

(١١٥) انصرف بعض الناس من الموسرين في مكة في مطلع القرن الرابع عشر الهجري إلى حياة اللهو والترف؛ فبنوا المتنزهات في ضواحي مكة. السباعي، تاريخ مكة، ص ص ٦٤٦، ٦٤٧.

(١١٦) إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص ٦٣.

(١١٧) وأشهر ألعاب الكبار المزمار، وتتم في الخلاء بطبل وغناء ورقص ثنائي بالعصا، وهناك الصهبة، وهي من الموشحات، إضافة إلى الكوتشينا والدومينو. أما ألعاب الصغار فمنها الاستغماية والبربر والكبت والمدارية (المرجيحة) والمدوان. عن تفاصيل هذه الألعاب راجع: حسن قزاز، أهل الحجاز، ص ص ٩٠- ١٠٠.

(١١٨) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٤٩.

(١١٩) المصدر السابق، ص ٥٨.

خشبية مقاعدها من شبكة ليف أو خوص مجدول للجلوس، ويشربون فيها الشاي والقهوة (من البن اليمني) والسوبيا، وعصير الليمون، وكبراؤهم يضيفون على القهوة مكسبات الطعم واللون والرائحة، مثل: القرنفل، والعطريات، ويسمونها دوشا، ويتعاطون فيها النرجيلة بكثرة، ويمر بعض الهنود على المقاهي وهو ينادي (كابوس)؛ أي: رياضة التدليك(١٢٠)، فإذا طلبه أحد فرشه على دكة، وأخذ يكبسه نحو نصف ساعة نظير قرش أو قرشين(١٢١).

أما في العهد السعودي فقد اختفت النرجيلة، وغدا تدخين الشيشة والسجاير يتم بصورة خفية، نظرًا لمنعه من قبل الحكومة. أما المسكرات فلا تباع ولا تشترى، ولا أثر لها في أسواق مكة أو الحجاز عامة إلا في دور القناصل في جدة، ويحاول البعض ممن لا أخلاق لهم تهريب المخدرات والاتجار فيها بشكل سري(١٢٢).

وبالقرب من المقاهي كانت هناك دور سمر يقدم فيها بعض أناس - في الغالب من اليمنيين - أغاني تطرب نفوس الحاضرين، وكلها في مدح النبي ﷺ، وفي بعض الأحيان ترى بعض المغنين متنقلين في طرق مكة(١٢٣).

التكايا

والتكية تعني دار الضيافة والبر والإحسان، وفي مكة ثلاث تكايا، أكبرها وأكثرها تنظيمًا التكية المصرية بحي جياد، شيدها محمد علي باشا، وفيها مخازن للغلال التي تأتي من مصر، وطاحونة يتناوب على

---

(١٢٠) وبجانب الهنود تجيد النساء هذا الفن؛ لإرضاء الأزواج الذين اعتادوا عليه قبل النوم، وتقوم الخادمة بتدليك سيدتها، وتتبادل الخادمة التدليك مع البنات الصغار بالتناوب. راجع: هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢ ص ٤٢٨.

(١٢١) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٥٧.

(١٢٢) الشهبندر، رحلة الحجاز، ص ص ١٧، ١٨.

(١٢٣) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٥٨.

تشغيلها أربعة بغال، ومخبز ومطبخ ومكان لإدارتها(١٢٤). كما توزع التكية مرتبات وهدايا وعطايا لعائلات حجازية بقصد البر والإحسان، وللبدو كفًا لأذاهم عن المحمل المصري(١٢٥)، وغدت عادة استمر العمل بها(١٢٦).

وقد توقف نشاط التكية زمن الحرب بين آل سعود والأشراف بسبب انقطاع المواصلات، ثم عاودت نشاطها الخيري الذي يستفيد منه ثلاثة آلاف من الفقراء، حيث توزع عليهم الخبز والحساء كل صباح(١٢٧). وبعد أن استقر الأمر للملك عبدالعزيز تمامًا في الحجاز قررت وزارة الأوقاف المصرية إرسال الغلال التي اعتادت إرسالها إلى التكية المصرية في مكة والمدينة، وقدرها (٢١٠٠٠) إردب من القمح، وطلبت التكية من الحكومة السعودية كشوفًا بأسماء الفقراء الذين توزع عليهم هذه الحبوب، وعليه اختارت الحكومة لجنة من أهل الخبرة للنظر في الدفاتر المحررة زمن الأتراك، ومقابلتها بالدفاتر التي وضعت في زمن الأشراف، لتحديد المستحق الحقيقي لهذه الصدقات(١٢٨).

المدارس

اقتصر التعليم في مكة زمنا طويلاً على حلقات الدروس في المسجد الحرام، مقصورًا على العلوم الشرعية واللغوية، وسجل البتنوني أن في مكة عام ١٣٢٧هـ مدرستين هما: المدرسة الصولتية بناها الشيخ رحمة الله الهندي(١٢٩)، وهي قائمة على تبرعات أهل

---

(١٢٤) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(١٢٥) عن ميزانية التكية المصرية ومرتبات الأشراف والفقراء والعربان من الصرة وأوقاف الحرمين في مصر. راجع: إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج٢، ص ص ٣١٢- ٣٦١.

(١٢٦) الراعي، في المملكة الروحية، ص ٩٨.

(١٢٧) جريدة أم القرى، عدد ٣٢، ١٦ محرم ١٣٤٤هـ، ص ١.

(١٢٨) المصدر نفسه، عدد ٦١، ١٣ شعبان ١٣٤٤هـ، ص ٣.

(١٢٩) هو الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهاشمي، ولد بكيرانه بالقرب من دهلي بالهند، فكان من علماء الإسلام الذين تصدوا للمحاولات التبشيرية في الهند، فألف كتاب إظهار الحق، ورحل إلى مكة؛ فوهب نفسه لخدمة العلم وخدمة الحجاج الهنود، وأسس مدرسته في سوق الليل. راجع: محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، (تونس، ١٣٩٨هـ)، ص ص ١٠٥- ١١٥.

الهند(١٣٠)، ومدرسة أنشأها الشيخ يوسف الخياط من علماء مكة، واعتزمت الحكومة العثمانية إنشاء مدرسة جديدة عام ١٣٢٨هـ(١٣١)، ثم ظهرت مدارس أهلية، أهمها مدارس الفلاح التي أسسها تاجر اللؤلؤ محمد علي زينل عام ١٣٢٦هـ(١٣٢)، فكان لها دور ريادي في تخريج كوادر إدارية لدواوين الحكومة. وكادت هذه المدارس تغلق أبوابها إثر تعثر تجارة اللؤلؤ، لولا أن تداركها الملك عبدالعزيز، فتولى الإنفاق عليها(١٣٣).

وصور دولتشين الحياة الفكرية في العهد العثماني بأنها محصورة في تعليم أولي بسيط، متمثل في حلقة ضيقة من المدارس الدينية، وهذه المدارس معظم روادها من الأغراب المقيمين، ويشكل أهالي البلد استثناءً(١٣٤). وتشكل الريشة والحبر والورق الوسائل الأساسية للتعليم في مكة. وقد يضطر طالب العلم إلى إعانة نفسه بالعمل في حرفة أو تجارة، لعدم انتظام الإنفاق على التعليم في العهد الهاشمي(١٣٥).

وسجل الأديب المصري محمد حسين هيكل أن أهل مكة في بداية العهد السعودي يقفون من تعلقهم بالحياة الحديثة عند نقد ما هم عليه في بلادهم، دون أن يتصوروا لونًا جديدًا للحياة العلمية يوائم مزاجهم، ولا ينكره تفكيرهم(١٣٦). والواقع العلمي (التقني) في العالم

---

(١٣٠) كانت الهند آنذاك هي شبه القارة الهندية التي تضم باكستان والهند وبنجلادش وكشمير.

(١٣١) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٥٩، ٦٠.

(١٣٢) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٢٢.

(١٣٣) طلعت حرب، بعض ما رأيناه في الحجاز، في المختار من الرحلات الحجازية، ص ١٣٠٧.

(١٣٤) ريزفان، الرحلة السرية، ص ١٤٦.

(١٣٥) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ٤٨٥.

(١٣٦) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٣١.

العربي حتى يومنا هذا يقف عند حد نقد الذات، دون أن يتعداه إلى مرحلة الخيال والإبداع. أما الواقع الثقافي فقد انخرط المجتمع المكي في عقد المملكة التي ارتضت لنفسها مظهرًا إسلاميًا، وأنشأت المدارس الحديثة، وأرسلت البعثات.

الخاتمة

وهكذا شكلت كتابات الرحَّالة معًا صورة واضحة المعالم للمجتمع المكي في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، وأظهرت نسيج المجتمع، وألقت الضوء على أنشطته وإيجابياته وسلبياته، كما أوضحت الفوارق بين العهود الثلاثة؛ العثماني والشريفي والسعودي، حيث تقلصت سلبيات المجتمع بشكل كبير في العهد السعودي، بعد أن غدت السلوكيات مراقبة من قبل السلطة السياسية والدينية، ونَعِم الحجاج بالأمن والأمان في أداء المناسك والتنقل بين الشعائر.

واستطاعت مكة في الفترة ذاتها أن تستوعب عناصر متنوعة من مختلف بلدان العالم الإسلامي، وصهرتهم في بوتقتها، واستفادت من خبراتهم وأموالهم في النشاط التجاري والسكاني، وإن تأثرت سلبيًا بعادات هذا القدر المتنوع من الأجناس وتقاليده، في ظل غياب الوعي الديني.